وقفاتٌ مع شهر الصّيام

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

اليوم 3 من رمضان 1434هـــ الموافق لــ 12 جويلية 2013م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد، ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ مُحمّدًا عبدُه ورسوله،

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾ " سورة النّساء.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ " سورة آل عمران.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا ﴿71﴾ " **سورة الأحزاب.**

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهَدْيِ هَدْيُ محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ، أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام،

لقد أهلّ علينا شهرٌ عظيمٌ، شهر التّوبة وشهر الرّحمة، شهر العبادة وشهر القرآن، شهر المغفرة وشهر العتق من النّار.

إنّه شهر الصّيام، لقد اختار الله لهذا الرّكن وهو الصّيام شهرًا مباركًا كريمًا، له في نفوس المسلمين مكانٌ كريمٌ، كيف لا وهو الشّهر الّذي أُنْزِلَ فيه القرآن الكريم، قال تعالى:

" شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . . . ﴿ 185 ﴾ " سورة البقرة.

قال تعالى:

" إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿ 1 ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿ 2 ﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿ 3 ﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿ 4 ﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿ 5 ﴾ " سورة القدر.

وإنّه لجديرٌ بشهرٍ اصطفاه الله من باقي الشّهور لِيُنَزِلَ فيه أفضل كتبه على خير خلقه، إنّه لجديرٌ بشهرٍ هذا شأنه أن يكون أهلاً ليفرض فيه الصّيام، قال تعالى:

" شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . . .

﴿ 185 ﴾ " **سورة البقرة.**

معاشر المسلمين إنّ لهذا الصّيام أسرارٌ، يا إخوتي الكرام، وينبغي أن ندرك الحكمة من وراء هذا الجوع والعطش، وأن ندرك سرّه في الصّوم، حتّى نؤدّيه كما أراده الله، لا كما يشتهيه النّاس.

ويكون إدراك سرّ شهر الصّيام بإدراك سرّ هذا الإنسان، هل الإنسان هذا الهيكل العظميّ، وهذا اللّحم والدّم والعصب، إن كان هذا هو الإنسان فما أحقره.

كلاّ ليس الإنسان ذلك، إنّما هو روحٌ سماويٌّ يسكن هذا الجسم الأرضي، ولذلك حينما تفارق الروح الجسد يصبح هذا الجسد جثّةً هامدةً، لا تتحرّك ولا تنتج، ولا تنفع ولا تضرّ.

معاشر المسلمين،

لذلك أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لهذا الإنسان، بعد أن نفخ فيه من روحه.

" **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿71﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿72﴾** " **سورة ص.**

ذلك هو الإنسان، روحٌ علويٌّ، وجسدٌ سفليٌّ.

فالجسد هو البيت والرّوح هو ساكنه، فالجسد مركبةٌ والروح راكبٌ، ولم يُصْنَعْ البيت لنفسه وإنّما لساكنه، ولا المطيّة لذاتها بل لراكبها.

فما أعجب هذا الإنسان الّذي أهمل نفسه واهتمّ بمسكنه، ويا حسرتاه على أقوامٍ أهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم!.

قال الشّاعر:

يا خـــادم الجســـم كم تسعى لخدمته أتطلب الرّبـــح فيمـــا فيـــه خسران

أقبل على النّفس واستكمل فضائلـــها فأنت بالرّوح لا بالجـــســـم إنســـان

من هنا فرض الله شهر رمضان ليتحرّر الإنسان من سلطان غرائزه وشهواته، وينطلق من سجن جسده ويتشبّه بالملائكة، حتّى أنّ الصّائم يرتقي فيقترب من الملأ الأعلى، ويقرع أبواب السّماء فتنفتح له، ويدعو ربّه فيستجيب له.

فقد روى أحمد والتّرمذي وحسّنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أنّه قال: (**ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهم: الصّائم حتّى يُفْطِرَ، والإمام العادل، ودعوة المظلوم**).

- في الصّوم تقوى:

إنّ في الصّوم طاعةٌ للمولى وتحصيلٌ للتّقوى:

"**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿183﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ . . . ﴿184﴾**" **سورة البقرة.**

الأمور بمقاصدها فمن لم يتّق الله ومن لم تتق الله لم تحقّق مقصد الصّوم.

- في الصّوم صبرٌ:

إنّ أمّة الإسلام هي أمّةٌ لها قضيّةٌ، وهي نشر هذا الدّين في ربوع الأرض وحماية بيضتها من الأعداء، وكلّ هذا يحتاج إلى جهدٍ وتضحياتٍ، وصبرٍ ومصابرةٍ، والصّوم يحقّق هذه التّربية على الصّبر، والتّحمّل والتّضحية.

المسلم له ثلاث أعداءٍ: النّفس الأمّارة بالسّوء، وشيطانه، وأعداء الإسلام، وزاد المسلم مع هؤلاء هو الصّبر والمصابرة، والصّوم يؤدّي هذا المطلب، حيث أنّ الصّائم يجوع ويعطش وأمامه شهيّ الطّعام وبارد الشّراب، ويعفّ وبجانبه زوجته لا رقيب عليه إلاّ الله تبارك وتعالى، فيمتثل ويتحمّل كلّ ذلك طاعةً لله، فأيّ مدرسةٍ يمكنها أن تقوّي وتنشئ هذه الإرادة القويّة غير مدرسة الصّوم.

ولذلك قال تعالى في مواجهة الأعداد:

" وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿250﴾ " **سورة البقرة.**

معاشر المسلمين،

إنّ الإسلام دين عملٍ واجتهادٍ وتضحياتٍ، وبذلٍ وعطاءٍ، وليس دين استسلامٍ وخمولٍ، وكسلٍ وهوانٍ، بل هو دين كفاحٍ مستمرٍّ، وجهادٍ مستديمٍ مع النّفس وأعداء الإسلام، وأوّل العُدَّةِ الصّبر، وقوّة الإرادة لتمكين هذا الدّين.

ومن عجز عن جهاد نفسه وترويضها، أنّا له أن يجاهد عَدُوًّا !، ومن لم يصبر على الجوع، فهيهات أن يصبر على فراق الأهل والأولاد والأوطان من أجل هذا الإسلام!.

- في الصّوم شكرٌ للنّعمة:

وفي الصّوم تذكيرٌ للإنسان لِنِعَمِ الله تعالى، إسألوا الأجداد كيف كانوا ينامون؟، وماذا كانوا يأكلون؟، وعلى ماذا كانوا يتنقّلون؟، لتعرفوا النّعم الّتي نحن فيها اليوم.

ذلك أنّ النّعم لا تُعْرَفْ إلاّ بفقدانها، والحلو لا تُعْرَفْ قيمته إلاّ إذا ذقت المرّ، ولا تُعْرَفْ نعمة الطّعام والشّراب إلاّ إذا ذاق الجسم الجوع والعطش، حرارة العطش ومرارة الجوع.

من أجل ذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيما رواه التّرمذي وحسّنه:

(**عرض عليّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكّة ذهبًا، قلت لا يا رَبِّ، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**).

- في الصّوم دعوةٌ للتّكافل:

ومن أسرار هذا الصّوم تحقيق التّكافل الإجتماعي، ذلك أنّ فيه تذكيرٌ بحال الفقير والمسكين من غير خطبةٍ ولا درسٍ ولا لسانٍ، بل هو تذكيرٌ يسمعه الصّائم من معدته ونداء الأمعاء، ولن تجد درسًا أبلغ للإهتمام بالفقراء كدرس تعصّر أمعائك.

ذلك أنّ الّذي ترعرع في النّعمة و لم يعرف الجوع والعطش، لربّما ظنّ أنّ النّاس كلّهم مثله في النّعمة.

- في الصّوم قوةٌ للبدن:

والصّوم إلى جانب تقويته للتّقوى وتحقيقٍ للإرادة، فهو أيضًا فرصةٌ لتقوية البدن، لأنّ من أكثر أسباب ممّا يُصيب النّاس من الأمراض بسبب التّخمة وكثرة الأكل، ولذلك قال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه التّرمذي وحسّنه: (**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أُكَيْلاَتٍ** (أي لُقَيْمَاتٍ) **يقمن به صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لِنَفَسِهِ**).

ففي الصّوم فرصةٌ لراحة المعدة، وبتخلّص الجسم من الفضلات، فقد نشرت إحدى المجلاّت أن 300 شخصًا قد بَرِئُوا من مرض البول السكري بعلاج الصّوم.

- في الصّوم دعوةٌ إلى وحدة الأمّة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . . . ﴿183﴾ " سورة البقرة.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نِعَمِهِ، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله،

معاشر المسلمين،

أرجو أن نفقه هذه الأسرار فننتفع بهذا الشّهر المبارك، لأنّه شهرٌ قال فيه نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم: (**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه**).

أمّا جيل الصّحابة فقد قطفوا ثماره، كان نهارهم نشاطًا وإنتاجًا وإتقانًا، وكان ليلهم تزاورًا وتهجّدًا بالصّلاة وتلاوةً للقرآن، وكان شهرهم تعلّمًا وتعبّدًا وإحسانًا للفقراء، ألسنتهم صائمةٌ عن اللّغو والجهل عن النّاس، وآذانهم صائمةٌ عن سماع الباطل واللّهو، وأعينهم صائمةٌ عن الحرام والنّظر إلى العورات، وأيديهم صائمةٌ أن تمتدّ إلى دينارٍ أو درهمٍ حرامٍ.

والنّاس اليوم صنفان:

- صنفٌ اتّخذ رمضان موسم طاعةٍ، صاموا نهاره، فأحسنوا صيامه، وقاموا ليله فأتقنوا قيامه، شكروا نعمه و لم ينسوا المحرومين من الفقراء والضّعفاء، سهروا على ذكر الله و لم يناموا عن صلاة الصّبح، فهم نعم الصّوّام القوّام.

- وآخرين خَلَفُ سُوءٍ، لم ينتفعوا بهذا الشّهر، و لم يستفيدوا منه:

- جعله الله تعالى للقلب والرّوح، وجعلوه هم للبطن والأمعاء.
- جعله للحِلْمِ والعفو والصّبر، فجعلوه للغضب والشِّجار، والخصومة والعراك في الأسواق والطّرقات وعلى موائد الإفطار.
- جعله الله للتّخفيف على الفقير، وجعلوه للجشع والرّبح السّريع.
- جعله الله للسّكينة والوقار، فجعلوه شهر سبابٍ وشتمٍ وشِجَارٍ.
- جعله الله لتلاوة القرآن، فجعلوه لسماع الغناء.
- جعله الله ليغيّروا من صفات أنفسهم، يزكّوها ويرتفعوا فيها إلى منازل الأنبياء والصّحابة الأخيار والملائكة الأبرار، فما غيّروا إلاّ مواعيد أكلهم ونومهم وحركتهم.

قال عليه الصّلاة والسّلام: (**من لم يَدَعْ قول الزّور والعمل به، فليس لله حاجةً في أن يَدَعَ طعامه وشرابه**).

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت، وعافِنا فيمن عافيْت، وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رِضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بِقَوْمٍ فِتنةً، فتَوَفَّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهمّ إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يُقرِّبنا إلى حبّك،

اللّهمّ وفّقنا لأن نصوم هذا الشّهر المبارك إيمانًا واحتسابًا،

اللّهمّ وفّقنا لأن نقوم هذا الشّهر المبارك إيمانًا واحتسابًا،

اللّهمّ وفّقنا في هذا الشّهر المبارك إلى النّفقة والجود ممّا آتيتنا يا أرحم الرّاحمين،

اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحبّ العَفْوَ فَاعْفُ عنّا،

اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحبّ العَفْوَ فَاعْفُ عنّا،

اللّهمّ انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها،

اللّهمّ فرّج كربة السّوريّين والمصريّين،

إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلــٰه إلاّ أنت، نستغفرك ونتوب إليك.